في الأدب المقارن

أثر الأخلاق

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ نفري أبو السعود

التخلق من صفات الانسان الذي يحيا في الجماعة ، تضطره الحياة الاجتماعية إلى تعديل كثير من طباعه الفطرية التي يجبل عليها ، وكبح مايتنافى منها مع مصلحة المجتمع ، والأخذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هي الصفات التي بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ؛ وهذه الأخلاق الحسنة التي هي مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التي يفرضها عليه ، تكاد تتفق بين جميع الأمم في شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لايحمد فيها الكرم والايثار والقناعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، إنما تختلف الأمم والأفراد في مدى مراعاتها حقاً واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق في آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق في مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهور آثارها في الأدب أحيانا بدهياً تلقائياً غير مقصود ، كما يكون أحياناً مقصوداً معنياً ، إذ يلجأ الأديب إلى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه ، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل إلى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التي يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أثر كل ذلك واضح في آداب الأمة المكتوبة وفي أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة .

وفي الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع ، بيد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، إنما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ماهي عليه غير مموهة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائماً توأمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل إلى الإفراط والتفريط في حياتهم ، وأبعد عن القصد والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر في عصور الادبار الخلق ، كما كانت الحال في إيطاليا في عهد النهضة الأوربية ؛ على أن الأدب وإن لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، إن هو إلا مظهر من مظاهر رقي الانسان وتحضره ، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحي تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع .

فإذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد إلى الخلق القويم فواجبه الذي لاشك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب مواضيع الفساد ودواعي التبذل ، وكل أثر أدبي مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه ، إذا خالطه الفجور والاخلاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التي ياخذ نفسه بها كل متحضر متهذب مثقف ويدرج عليها حتى تأصل فيه وتصير له طباعاً ثانية

كانت للعرب في الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التي تمليها حياة البادية ، كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة وإجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق

نهائياً من جميع الأراضي الاسبانية (سنة ١٦٠٩ م - ١٠١٧ ﻫ) وحشدت السفن لنقل من كان منهم في الثغور إلى أفريقية ، ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا حيث استقروا في لانجدوك وجويان ، وبذلك انتهى الفصل الأخير ، من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من أمجد عصور التاريخ وحضارة من أعرق حضاراته

ولكن فلك التاريخ يسير بلا هوادة ؛ فقد كانت مأساة الموريسكيين ضربة لاسبانيا النصرانية ذاتها ، وكانت بدء عصور التدهور والانحلال التي ما زالت تتخبط أسبانيا في ظلماتها

وهل يكون من عدالة الله في أرضه وبين شعوبه ان تجتاح أسبانيا النصرانية اليوم هوجة مدمرة من الحديد والنار تحصد أبناءها وحضارتها حصدا ؟ وهل تكون الحرب الأهلية الاسبانية نقمة الموريسكيين تلحق أسبانيا بعد اربعمائة عام ؟

(نهم البحث)
(القلعوج)

محمد عبد الله عنان

يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلي ، يعزو الشاعر تلك الفضائل إلى نفسه تارة كما فعل عنترة في معلقته ، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودي وحاتم الطائي وذي الأصبع العدواني ، وآثار في ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا إلى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ؛ وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر ، ولم يدخروا في ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائي :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبة في اللحد بال رميمها

وبديهي أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغني بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر والفجور موفورة ، ودواعي المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى في سيرة امرىء القيس الذي لم يكد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفة التي صورها في معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة ، فمن سبقه العاذلات بشربة كميت ، وتقصير يوم الدجن بهكنة تحت الخباء المعمد ، وكره إذا نادى المضاف محنبا ، وكان ذيوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا إليه ، كما أخذ كثير من أشراف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق تربَ القبر أوصالي

مورثة القوم أضغانا بلا إحن مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الاسلام كما كان في الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن ، والمقنع الكندي والشريف الرضي ، وتفاخروا بالبلاء في الحروب والاباء على الضيم والتعالي على الجهال وطلب السيادة والمعالي ، كما فعل أبو فراس والمتنبي ، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا في مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذي يتمثل فيه الروح الاسلامي :

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسطاً اذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقول الشريف الرضي :

يصول على الجاهلون وأعتلي ويعجم في القائلون وأعرب

لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى إذا نال مني العاضه المتأوب

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

وكأن احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم إياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه . وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم في التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس في التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناشيء نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربي وأجمعه لخير ميزات الأدب العربي ، من البلاغة والصراحة والايجاز ونفاذ النظرة

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشراف الجاهلية ، والتي رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويداً رويداً نزعة مضادة لها كانت ذات أثر في الأدب واضح وضوح نزعة التسامي تلك أو هو أوضح ، وتلك هي نزعة الاستهتار والمجون والاباحة التي كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعي الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع ، حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية

وانعكس أثر كل هذا الفساد في الأدب العربي ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبب الشعراء بالذكور ، وتمدحوا بالتسلل إلى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف في الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم في خصومهم بأفذع الهجاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم . وفي أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبي نواس والمتنبي وابن الرومي من ذلك الشيء الكثير

أوغل الشعراء في تلك الأبواب إيغالا لا يكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجري عليها تاريخ الأدب العربي لا تزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم

مقال فى سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البديهى أنه مهما تفنن الناظم فى وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فان يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبى ربيعة وبشار وحماد وأبى نواس وأمثالهم إن هى إلا استهتار وتمدح بالمخازى ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ؛ فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى . ومن أيسر مجون أبى نواس قوله :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى : هى الخمر

ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط فى الشراب ماشاء ، بل يأبى إلا الاعلان فى الفجور وإلا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة

ولئن حدت الحرية الفكرية التى كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء فى كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التى استباحها المجان من الأدباء ، الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقى العلم ، والثانية تؤدى إلى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع - وإن لم يقصد - مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا . وليس شك فى أن أشعار أبى نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامى ، وقد كانت حياة الصعلكة التى كان يحياها ، وأشعار العربدة التى نظمها ، نموذجا للأدباء فى عصور الإدبار ، فكان الأدب والصعلكة وإدمان الشراب ووصف الخمر فى نظرهم توائم لا بد أن تجتمع

فى الأدب العربى آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ؛ وفى الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضاً : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التى سنتها المسيحية ، بجانب تلك التى أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك فى أشعار سبنسر الذى جعل كل فارس فى ملحمته « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضاً فى أدب عهد المطهرين ، فى كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية ؛ وظهرت فى الأدب الانجليزى بجانب ذلك نزعة الاستهتار والمجون فى بعض الفترات ، كما حدث فى بعض القرن السابع عشر من جراء التأثر بالبلاط الفرنسى المترف ، وفى أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثر بالأدب الفرنسى أيضا ، إذ نزع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وإيلد إلى ذلك الضرب التحليلى من القصص الذى يسرف فى تصوير اللذات ، واستكناه دنىء العواطف وخسيس النزعات

على أن كلا الأمرين - أعنى التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل - كانا ضئيلى الأثر قصيرى العمر قليلى الأتباع فى تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزى الذى يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوة المثقفين ، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشاعر بعد وفاته ؛ والتمادى فى التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزى والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لا يحظى منه بغير الانكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلى وأوسكار وإيلد ، فالجأ الأولين إلى حياة المنفى وزج الثالث فى غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزى فى الغيرة على تقاليده إلى حد يسميه بعض الناس نفاقاً اجتماعياً ، فيغضب على أدباء كرام سليمى الطوية ، كما غضب على هاردى ولورانس من القصصيين المحدثين

فالطبع الانجليزى يأبى أن يكون الأدب مطية للتفلسف الخلق والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقح ، وإنما رسالة الأدب الانجليزى التى ورثها عن الأدب الاغريق هى الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامى كان يعوز حتى الأدب الاغريق ذاته أحيانا ؛ وإنما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم - فضلا عن طبيعتهم الهادئة التى هى وليدة جوهم البارد - لم ينساقوا فى تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وترامى أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التى شادت الإمبراطوريات فى عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجياً هادئاً كالنمو الطبيعى ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القويمة .

أضف إلى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطى ، أى بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأى العام الكلمة العليا فى المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع إذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادى والأدبى وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواه ؛ على حين كان الرأى العام فى الأمم الاسلامية ضعيفاً مستخذيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان

أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وألف بعضهم حينا جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والضرب على أيدى العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية فى الدول الاسلامية أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحة فى الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجمع كان مجتمعا إسلامياً والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل سعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى ، وظلت النظرة إلى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء . وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب ، ويتهكم بالمتشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة ، أى بالمسرفين فى كل شىء المجاوزين حد القصد والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى فى مسلكه وفى أدبه ، والتطرف يثير سخره واحتقاره ، وهذا الميل منه واضح فى مواضيع الآداب الفكاهية ، وضوحه فى أغراضه الجدية

فخرى أبو السعود

ذكريات . . .

للأستاذ على الطنطاوى

هما موقفان لا أزال أذكرهما ، أو تغمض عينى كف الغاسل:

أما الأول فعلى ضفاف بردى ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣٦

وأما الثانى فعلى شاطىء دجلة فى الخامس من مايو ١٩٣٧

***

كان بردى يخطو على مهل ، متهللا منطلق الوجه ، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها ، وهى تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت فى السيارة الفخمة ، أنظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق ، الذين خرجوا من بيوتهم فى هذا الصباح ، ليودعونى قبل نزوحى إلى العراق فأقلب النظر فى وجوههم ، شاكراً لهم فضلهم ، حزيناً لفراقهم ، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجى النفس ، فأبصر فى خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلا وتيهاً ، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب فى الماء فأبصر فيها ذكرياتى حية تطالعنى وتحدثنى ، وتعيد على مسمعى قصة حياتى ، وتتلو علىّ تاريخى فأحس بلوعة الفراق ، وأشعر فى تلك الساعة بأنى أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتى ، ودنياى من الدنيا ، وغاية أملى فى حياتى ... ثم يطوى المرج هذه الصور كلها ، ولا يدع حيال عينى إلا صور إخوتى ، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق ، ثم تجتمع كلها فى وجه واحد ، هو أحبّ الوجوه إلىّ وأدناها إلى قلبى ... وألمح فى الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان ، فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر ، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتنى فى محطة الحجاز ، آية الفن الحديث فى دمشق ، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه ، فمن مسافر مجل ، ومن مودع باك ، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب ، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً فى ركن من أركان القطا